التلقي العربي للنقد النسوي
كتابات سوسن ناجي النقدية نموذجًا

أ.م.د.سيد ضيف الله
أستاذ مساعد النقد الأدبي
المعهد العالي للنقد الفني
أكاديمة الفنون

تنشغل هذه الدراسة بالنظر في كيفية استقبال الخطاب النقدي النسوي في الثقافة العربية، خاصة أن ما أثاره ولا يزال يثيره مصطلح نقد نسوي يدلل على وجود مواقفهم متباينة من هذا النقد. ومن الواضح أن هذا التباين له أسباب متداخلة؛ فمنها التباين الفكري والأيديولوجي، ومنها ما له علاقة باختلاف الهوية الجندرية في مجال النقد الأدبي، ومنها ما يتعلق باختلاف مستويات القراءة والتعمق في مصادر النقد النسوي في اللغات الأجنبية. ومن المهم الإشارة إلى أن هذا التباين لم يكن تباينًا حول النقد النسائي أو الكتابة النسائية، وإنما حول النقد النسوي أو الكتابة النسوية. ذلك أن كتابة النساء للنقد أو كتابتهن للأدب لا تثير تباينًا حولها لأنه تمييز على أساس المؤلف رجلاً أو امرأة، أما النقد النسوي أو الكتابة النسوية فهي التي تثير تباينات لأنها تمييز بين النصوص على أساس ما تنطوي عليه من وعي، فإن كان وعيًا مماثلاً لما هو سائد في المجتمع والأدب التراث النقدي المعتمَد ومناهضًا لحقوق المرأة وقضاياها عُدَّ نقدًا غير نسوي حتى لو كان بعض مؤلفيه من النساء، أما لو كان وعيًا مناهضًا لما هو سائد عُدَّ نقدًا نسويًا حتى لو كان مؤلفيه من الرجال. وبعبارة أخرى، فإن "المقصود بالكتابة النسائية كل الكتابات التي تتم بأقلام النساء بصرف النظر عن نوعها الأدبي وشكلها ومحتواها(..) ونحن حين ننطلق من مضمون الحركة والنص والذي يعبر عن صوت وفعل يتعلق بقضايا النساء مرتكزًا إلى منطلق حقوقي أساسه العدالة والمساواة بين الجنسين، فإننا هنا نتحدث عن نص نسوي وحركة نسوية"[١].

وعلى هذا الأساس كان اختيار منجز سوسن ناجي النقدي باعتباره خطابًا نقديًا وثقافيًا تشكل نتيجة عملية تثاقف بين أطروحات الفكر النقدي النسوي والثقافة السائدة في العالم العربي، ليكون موضوعًا لهذه الدراسة لاستكشاف أبعاد عملية التلقي للنقد النسوي وأطروحاته وتحولاته في سياق ثقافي مميز. إذ تعمل سوسن ناجي[٢] أستاذة متفرغة بكلية دار العلوم جامعة المنيا بجنوب مصر، و نشرت حتى هذه اللحظة ثلاثة

[١] هالة كمال.النقد الأدبي النسوي والترجمة النسوية.ضمن هالة كمال(ترجمة وتحرير).النقد الأدبي النسوي. مؤسسة المرأة والذاكرة، ٢٠١٥.(ص١٠).

[٢] نشرت سوسن ناجي في عام ٢٠٠٨ مجموعة قصصية عنوانها "الخروج من الداخل"، وفي العام نفسه نشرت ترجمة لكتاب عنوانه "الخطاب النسوي المفهوم والدلالة قراءة في نظريات الأدب النسوي" عن دار نشر محدودة الانتشار بمحافظة

عشر كتابًا، وتكاد هذه الكتب لا تخرج عن دائرة كتابات المرأة في الرواية والقصة القصيرة والشعر، وهذه الدائرة قد تتسع لتطرح أسئلة تتجاوز النص الأدبي إلى المجتمع وفي القلب منها أسئلة النهضة والتحرر والتنوير واستعادة الهوية.

ومن المهم الإشارة إلى أن المنجز النقدي لسوسن ناجي حول كتابات المرأة قد لفت نظر واحدة من الناقدات النسويات البارزات في جامعة القاهرة، وهي الدكتورة هالة كمال، فكتبت في مقدمة ترجمتها لكتاب "النقد الأدبي النسوي" مشيدة بأول كتاب لسوسن ناجي والذي صدر عام ١٩٨٩ تحت عنوان "المرأة في المرآة. دراسة نقدية للرواية النسائية في مصر (١٨٨٨-١٩٨٥)[٣]، حيث اعتبرت هالة كمال هذه الدراسة "دراسة رائدة في النقد النسائي المصري لما تكشف عنه من وعي مؤلفتها بخصوصية الكتابة النسائية مع استنادها إلى مدرسة النقد العربي في تحليل النصوص الأدبية[٤]". وأشارت هالة كمال كذلك إلى الدراسة الثانية التي نشرتها سوسن ناجي في المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٥ عن القصة القصيرة بعنوان "صورة الرجل في القصص النسائي.دراسة نقدية للقصة النسائية في مصر[٥]"، لتوضح أن ثمة مواصلة لمشروع نقدي يتبلور لناقدة مصرية حول الكتابة النسائية، وفي الوقت نفسه تكشف عن خصوصية هذا الإسهام النقدي لكونه – بحسب هالة كمال-جاء " من خارج القاهرة، إذ أن مؤلفتها أستاذ في كلية دار العلوم بجامعة المنيا في صعيد مصر، بما يضمن وصول صوتها وتردد صداه في صعيد مصر، بما يكسر ارتباط الإبداع والنقد النسائي بالقاهرة ودور نشرها ومؤسساتها الجامعية على مدار العقود الماضية".[٦]

أصدرت سوسن ناجي بين هذين الكتابين الأساسيين في مسيرتها النقدية (المرأة في المرآة) و(صورة الرجل) كتابًا صغيرًا بعنوان "في مجادلة الخطاب الذكوري السائد في الأمثال الشعبية المعاصرة.المنيا:دار المروة للنشر، ٢٠٠٢. ويعكس هذا الكتاب مدى انشغال سوسن ناجي بمواجهة الخطاب الذكوري بالتحليل النقدي سواء كان في داخل دائرة تخصصها الأكاديمي في أطروحتيها للماجستير والدكتوراه[٧]، أو خارج هذه الدائرة،

المنيا. وقد دأبت سوسن ناجي على ممارسة هوايتها في الكتابة النقدية للفن التشكيلي باحترافية جعلتها تشارك كناقدة للفن التشكيلي في العديد من المؤتمرات العلمية في العالم العربي.

[٣] سوسن ناجي.**المرأة في المرآة. دراسة نقدية للرواية النسائية في مصر(١٨٨٨-١٩٨٥)**.القاهرة: العربي للنشر والتوزيع،١٩٨٩.وهذا الكتاب أعيد طبعه في نسخة مزيدة عن المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٢ بعنوان:**المرأة المصرية والثورة.دراسات تطبيقية في أدب المرأة.**

[٤] هالة كمال(تحرير وترجمة وتقديم). **النقد الأدب النسوي**.القاهرة: مؤسسة المرأة والذاكرة، ٢٠١٥.ص٢٨.

[٥] سبق لسوسن ناجي أن نشرت هذا الكتاب عام ١٩٩٥ دون ناشر، ثم صدر الكتاب نفسه بعنوان جديد "**تخييلات الآخرفي القصص النسوي المعاصر**، دار جليس الزمان،عمان:٢٠١٨.

[٦] هالة كمال. مصدر سابق. ص٢٨.

[٧] كان كتابها المرأة في المرآة نتاج أطروحتها للماجستير. وكان كتابها صورة الرجل في القص النسائي نتاج أطروحتها للدكتوراة.

ولكن يقع في إطار همومها كامرأة تعيش في واقع يهيمن عليه خطاب ذكوري تراه متجسّدًا في أمثال شعبية متداولة حولها.

وتتوالى إصدارات[٨] سوسن ناجي، ولكنها لا تخرج عن دائرة الكتابة النسائية وهمومها إلا بما يتماس معها من أسئلة التحرر.

- الوعي بالكتابة في الخطاب النسائي العربي المعاصر. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣.
- خوف الكتابة، مقارنة نقدية لهوية الكتابة عند المرأة. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠١٣.
- كتابة الذات، قراءة في خطاب الهوية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٨.
- الفنون عتبات التحرر واسترداد الهوية. ألمانيا، نور للنشر والتوزيع، ٢٠١٥.
- في هوية الكتابة الأدبية، قراءة في ذاكرة الكاتبات العربيات،ألمانيا: نور للنشر، ٢٠١٦.
- شاعرية اللغة، تخييل الجنون.القاهرة: المكتب العربي للمعارف، ٢٠٢٢.
- في ثقافة التمدن وبناء الهوية. القاهرة: واو للنشر والتوزيع، ٢٠٢٢.

نحن إذن أمام مدونة نقدية يمكن دراستها بوصفها منجزًا نقديًا يشكل خطابًا نسويًا تبلور خارج القاهرة باعتبارها مركزًا ثقافيًا مصريًا وعربيًا، لكنه لم يستسلم لهامشيته المكانية[٩].

لا شك أن احتفاء هالة كمال ببدايات سوسن ناجي النقدية استنادًا لكونها ناقدة من كلية دار العلوم جامعة المنيا في صعيد مصر كان احتفاء مستحقًا وواعيًا بتلك المسافة المعرفية بين المركز والهامش، لاسيما حين يكون الحديث حديثًا عن النقد النسوي الذي يمكن النظر إليه هو ذاته على أنه مهمّش في علاقته بمؤسسة النقد وخطاباتها المهيمنة، لكن تمييز هالة كمال بين ناقدات نسويات يعملن من داخل النظرية النقدية النسوية، وناقدات أخريات يعملن على الكتابة النسائية مستخدمات مدرسة النقد العربي في تحليل

[٨] هناك فصول يُعاد نشرها كاملة في أكثر من كتاب يحمل عنوانًا مختلفًا.

[٩] إذ كانت سوسن ناجي في بداية إعدادها لرسالة الماجستير تتواصل مع لطيفة الزيات أستاذة الأدب بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة لتقدم لها إرشادًا أكاديميًا بشكل غير رسمي، بل كان اختيارها لموضوعها نتيجة لتحفيز من تواصل مع ميرفت حاتم من جامعة هارفارد وقتئذ، كما تواصلت مع فريال غزول أستاذ الأدب بالجامعة الأمريكية لتحصل منها على إرشاد أكاديمي غير رسمي بخصوص أطروحتها للدكتوراه عن صورة الرجل في القص النسائي، فضلا عن عضويتها بجمعية نوال السعداوي وحضورها لقاءاتها بالقاهرة. هذه المعلومات عن الصلات الأكاديمية والثقافية ذكرتها استنادًا لحديث تليفوني أجراه الباحث مع سوسن .

النصوص الأدبية، قد أثار لدى الباحث تساؤلا عن أثر السياق الثقافي على مستقبل خطاب سوسن ناجي النقدي[١٠].

ومن هنا، وفي ضوء مجمل المدونة النقدية لسوسن ناجي، فإن هذه الدراسة تحدد أسئلتها على النحو التالي:

١- ما الملامح العامة للخطاب النقدي النسوي عند سوسن ناجي؟

٢-إلى أي مدى تحقق الانسجام بين الفكر النسوي وتصوّر سوسن ناجي للهوية في هذا الخطاب النقدي؟ كيف؟

ولمعالجة هذه التساؤلات سوف تسير الدراسة وفق المخطط التالي لأفكارها الرئيسة:

- غاية النقد في خطاب سوسن ناجي النقدي.
- رؤية سوسن ناجي للعلاقة بين النقد الأدبي والخطاب النسائي الأدبي والنقدي.
- محاولات تحقيق الانسجام بين الخطاب النقدي النسوي ومسألة الهوية.
- تعليق ختامي.

****

- غاية النقد في خطاب سوسن ناجي النقدي:

تظهر غاية النقد بوضوح عند سوسن ناجي ليس في متن كتبها فحسب، وإنما في الإهداءات الدالة على الوعي بالكتابة النقدية باعتبارها فعلاً لتغيير المجتمع، للدرجة التي تجعلها ترى خطابها النقدي بمثابة "سفر ثورة"، وذلك في إهدائها كتابها الأول "المرأة في المرآة " على النحو التالي:

إلى الرجل

في وطني .. وفي كل مكان.

أهدي أولى الكلمات في سفر الثورة[١١].

ويتضح كيف يمكن أن تكون الكتابة النقدية النسوية سفر ثورة عند سوسن ناجي في كتابها الأول عبر ربطها بين تحرر المرأة في الرواية وتحرر المرأة في المجتمع، إذ يصبح فعل الكتابة الروائية النسائية ليس تعويضًا أو إلهاء عن واقع المرأة في المجتمع، وإنما ساحة لتحفيز النساء للتحرر في المجتمع بعد تحرير المبدعات لهن في عالم

[١٠] لا أتفق مع هالة كمال حول التمييز بين مدرسة للنقد العربي تمثلها أقسام اللغة العربية بالجامعات المصرية وأخرى للنقد الغربي تمثلها أقسام اللغة الإنجليزية بالجامعات المصرية، لكني أعتقد بأثر ثقافة الناقد ومعارفه ورؤيته للعالم على خطابه النقدي. راجع هالة كمال: مصدر سابق، ص-ص٢٧-٣٠.

[١١] سوسن ناجي. المرأة في المرآة.دراسة نقدية للرواية النسائية في مصر(١٨٨٨-١٩٨٥).القاهرة:العربي للنشر والتوزيع. ١٩٨٩.ص٣.

الرواية وإثبات أن فعل التحرر ممكن تخيله، وما يمكن تخيله فقد تحقق على نحو من الأنحاء وصار في دائرة الممكن رؤيته بعين الخيال.

"يمكننا القول بأن صورة المرأة تبعث بالضرورة تغيير المجتمع(..) وأن ما وصلت إليه المرأة في نهاية هذه الأعمال من إعلان حريتها وظهورها كإنسان حر له إرادة، ليرتبط ارتباطًا وثيقًا مع بداية تحرر المجتمع الحقيقي"[١٢].

وإذا كان الإبداع الروائي النسائي يرسم صورة لامرأة تتحرر وتنتقل من صفحات الرواية إلى واقع المجتمع ساعية لتحررها الفعلي، فإن دراسة ذلك الإبداع تحديدًا تصل بين ذات الناقدة وذات المرأة في رحلة استكشاف لذات المرأة في أعماقها وتعدد أوجه هويتها. وهو ما يتضح جليّا في قول سوسن ناجي:"وما لبثت دوافع أخرى ذاتية أن دفعتني إلى هذه المحاولة، فقد كنت شغوفة باستكشاف العالم الداخلي الذي تمور به أعماق المرأة، كرحلة ضمنية ومحاولة لاستكشاف الذات"[١٣].

من المهم الإشارة إلى أن استكشاف الذات فعل معرفة وتعرف على النفس لابد أن يترتب عليه فعل تحقيق للذات وموضعتها في الموضع المناسب والجديرة به في المجتمع وفق رؤيتها لنفسها لا وفق رؤية الآخرين لها، ومن ثم يصبح استكشاف الذات الناقدة والنسائية خطوة لا غنى عنها لتحققها في المجتمع. من المؤكد أن الوعي وحده بالذات لا يحقق لها المكانة الاجتماعية التي تصبو لها، ذلك أن ثمة صراعات متعددة الأوجه في كل مجتمع تحول دون تحقيق ذلك.

ومن هنا، يتضافر الوعي بالذات في خطاب سوسن ناجي النقدي بالوعي بالبنية البطريركية التي تهيمن على المجتمع الذكوري والتي تحوُل دون وصول الذات النسائية ناقدة ومبدعة دون الانتقال من صفحات الكتب إلى واقع المجتمع، ومن ثم تعبر سوسن ناجي في كتابها "في مجادلة الخطاب الذكوري السائد" عن وعيها بدور الكتابة النقدية في تحطيم الأرضية المعرفية المكبِّلة للمرأة والمساهمة في تشكيل معرفة مضادة للبنية البطريركية الذكورية. ومن الأمثلة الدالة على ذلك قولها:

"هذا البحث مجرد محاولة لإحياء الطرف الصامت في التاريخ العربي (المرأة) الطرف المطيع، الطرف المستغل رسميًا، أو المبعد عن القرار السياسي، والتنقيب عنه يعد تحطيمًا للأرضية المعرفية التي ينطلق منها الهجوم

[١٢] المصدر السابق، ص١٥.

[١٣] المصدر السابق، ص٥.

الرجعي ضد المرأة. وكأن وجهة النظر هنا تسعى إلى إعادة تقييم العوامل التي أدت إلى قهر النساء، بل والتدخل من أجل تشكيل المعرفة بإعادة قراءة التراث/التاريخ[١٤]".

من الملاحظ أن سوسن ناجي في ربطها بين فعل الكتابة الروائية النسائية وفعل الكتابة النقدية النسائية كانت تعبر بوعي عمّا يشبه وحدة شعورية وموقع اجتماعي وثقافي واحد تقف فيه الذات الروائية والذات الناقدة، لكن من اللافت استخدام سوسن ناجي للغة حجاجية مدافعة عن حق الرواية النسائية في الوجود، وذلك حين تربط بين وجود الرواية النسائية والليبرالية كمرجعية فكرية تمنح حق الوجود لكل المختلفين، بل وتجعل التحليل النقدي للكتابة الروائية النسائية بشكل منصف سبيلاً -إن لم يكن شرطًا- لحل مشكلة عدم المساواة بن الجنسين باعتباره مشروعًا مستقبليًا. ومن الأمثلة الدالة على ذلك قولها:

" والرواية النسائية بهذا ، تسهم إلى حد كبير في "حل مشكلة عدم المساواة بين الجنسين كمشروع مستقبلي لا يمكن أن يطرح بجدية إذا لم نبدأ التحليل النقدي لوضع المرأة كما تعكسه هذه الكتابات، وكيفية التعامل الأمثل معه. بل إن التأصيل لليبرالية الفكرية لا يكون إلا باحترام وجهات النظر المختلفة ومحاولة فهم أسباب الاختلاف"[١٥].

ولم يقتصر استخدام سوسن ناجي لليبرالية في حجاجها النقدي على الدفاع عن حق الرواية النسائية في الوجود، وإنما استخدمت التنوير باعتباره إحدى مفردات الخطاب الليبرالي لتحديد مهمة الناقد الذي اختار أن تكون غاية النقد عنده تغيير المجتمع. إذ نجد سوسن ناجي تتبنى موقف جابر عصفور التنويري وهو يحدد للكتابة النقدية غاية تتمثل في أن تكون كتابة وعي ضدي، ومن ثم تحلُّ الكتابة النقدية النسائية عند سوسن ناجي محل كتابة الوعي الضدي عند جابر عصفور، وتكتسب صفاتها وتتبنى غايتها. وهو ما عبرت عنه بقولها:

"وتصبح فاعلية درس الخطاب النسائي- في ضوء هذا- كامنة في قدرته على تأسيس نوع جديد من الكتابة، "كتابة الوعي الضدي التي تطرح السؤال على نفسها في الوقت الذي تطرحه على غيرها.إنها كتابة الأزمة، والكتابة الإشكالية، والكتابة التي لا تبدأ من اليقين والإذعان، بل تبدأ من السؤال، من لحظة الشك

[١٤] سوسن ناجي.في مجادلة الخطاب الذكوري السائد.مقالات وبحوث في الأدب العربي.المنيا: دار المروة للطباعة والنشر. ٢٠٠٢. (ص٥٣).

[١٥] سوسن ناجي. المرأة في المرآة.دراسة نقدية للرواية النسائية في مصر(١٨٨٨-١٩٨٥).(ص٨)

في نفسها، وما حولها.. وهي حين تبدأ بسؤال الهوية، تؤسس لسؤال الوجود، فسؤالها القائل: ما أكون؟ هو مقدمة لتحديد قدرتها على الإجابة عن السؤال القائل: ماذا يمكن أن أفعل في هذا الوجود؟"[١٦][١٧].

ومن هنا يمكن أن نلحظ استمرار اعتقاد سوسن ناجي في أن غاية النقد النسائي هي تغيير المجتمع الذكوري البطريركي، ولا يقل أهمية عن ذلك أن نلحظ ذلك الحجاج باستخدام مفاهيم الليبرالية الفكرية، والوعي الضدي في صياغة تلك الغاية. ومن الأمثلة الدالة على ذلك في خطاب سوسن ناجي النقدي قولها:

"والخطاب النقدي النسائي- في ضوء هذا- يحاول أن يأتي بموضوعات جديدة، في ضوء لغة خاصة لها مفرداتها، ومعجمها الموسوعي، الذي يدور حول دراسات مثل الهوية الجنسية Gender، والتحيز ضد المرأة وخصوصية الكتابة النسائية بما تنطوي عليه من علامات تحول(..) فالخطاب النسائي- إذن- قبل أن يكون نصًا أو نقدًا، فهو رؤية، ومخطط استراتيجي"[١٨].

صفوة القول، لقد أصبح النقد النسائي للكتابة النسائية عند سوسن ناجي ليس مجرد ممارسة نقدية، وإنما رؤية للعالم، ومخططًا استراتيجيًا -على حد تعبيرها- يستلزم لتحقيقه طرح قضايا بعينها والانشغال بأسئلة محددة، وينطلق من يقين راسخ بخصوصية الكتابة النسائية وجدارتها بالدراسة باعتبارها كتابة نسائية وليس مجرد كتابة.

****

- رؤية سوسن ناجي للعلاقة بين النقد الأدبي والخطاب النسائي الأدبي والنقدي:

إن تأمل العلاقة بين الكتابة النسائية الإبداعية والنقد الأدبي في خطاب سوسن ناجي النقدي يكشف عن توتر مستمر سواء على مستوى الاعتراف النقدي بقيمتها الجمالية، أو وضعها موضع الاعتبار في التأريخ للأنواع الأدبية سواء كانت الرواية أو القصة. إضافة إلى التوتر، ثمة شك في خطاب سوسن ناجي في نوايا مؤسسة النقد الأدبي باعتبارها مؤسسة رمزية يهيمن عليها الفكر الذكوري الأبوي، وهو ما يجعل سوسن ناجي تتعامل مع عملها النقدي للكتابة النسائية منذ كتابها الأول باعتباره فعل مقاومة للتيار السائد في المجال النقدي الأكاديمي وغير الأكاديمي. وهو ما تشير إليه بقولها: "لا توجد للآن دراسة كاملة تستوعب تاريخ الرواية المصرية عند الروائيات المصريات منذ النشأة حتى الآن، وإن وجد فهو تناول للقليل من هذه

---

[١٦] اقتباس سوسن ناجي من كتاب جابر عصفور"آفاق العصر .القاهرة:الهيئة المصرية العامة للكتاب.١٩٩٧. (ص ١٧٤)

[١٧] سوسن ناجي.شعرية اللغة وتخييل الجنون.قراءة في السرد النسوي العربي المعاصر .القاهرة:المكتب العربي للمعارف. القاهرة.٢٠٢١.(ص٨٥).

[١٨] المصدر السابق، الصفحة نفسها.

الأعمال، بل وأسقطت– الرواية النسائية– في دراسات عديدة، وكأنها في معزل عن أدب المنطقة بأسرها؟"[١٩]

إضافة إلى فعل الإقصاء من التاريخ الأدبي، تشير سوسن ناجي لفعل تشويه يُمارس تجاه الكتابة النسائية الإبداعية منذ بدايات الرواية والقصة النسائية في الربع الأول من القرن العشرين، وحتى اليوم، حيث شاع وهم بين القراء بتطابق ضمير المرأة الراوية مع ضمير المرأة الكاتبة، واعتبار القصة أو الرواية النسائية تجربة شخصية وكأن ضمير المتكلم ضمير اعتراف المرأة على نفسها[٢٠].

اختارت سوسن ناجي أن تواجه فعل الإقصاء للكتابة النسائية من التأريخ الأدبي للرواية والقصة بتقديم تأريخ منفصل ومستقل للرواية النسائية في كتابها "المرأة في المرآة"، وتأريخ للقصة النسائية في كتابها "صورة الرجل في القص النسائي". و في الوقت نفسه لم تتجاهل الوهم الشائع بين الذين يخلطون بين التجربة الفنية والتجربة الشخصية وأثرها على الكتابة النسائية سواء على مستوى إنتاج المبدعات أو على مستوى تلقي النقاد والقراء، ومن ثم اختارت دراسة ذلك الوهم لتفنيده نقديًا على نحو كشف عن ملامح فنية مائزة للكتابة الإبداعية النسائية في سياقات مختلفة في خطابها النقدي. ويمكن أن نشير لعدد من السياقات التي ربطت فيها بين خصوصية الكتابة النسائية والتشويه تذرعًا بالذاتية وكيف أمكن التخريج النقدي للذاتية عبر أفكار نقدية تواترت في خطاب سوسن ناجي النقدي عن الكتابة النسائية.

ففي الخطاب النقدي النسوي تتبدل القيمة الجمالية للذاتية لتتحول إلى ملمح جوهري لخصوصية الإبداع النسائي، وهنا يصبح التطور التاريخي للإبداع النسائي يتفاعل طرديًا مع تطور القيمة الجمالية للذاتية في الكتابة النسائية بانتقالها – في مرحلة البدايات الفنية للكتابة النسائية–من إهمال الذات أو عدم وعي المرأة بذاتها بوصفها امرأة لا بوصفها امرأة ملحقة برجل تدور في فلكه حضورًا وغيابًا، إلى الوعي بالذات الأنثوية المتحررة من رؤية المجتمع الذكوري النمطية لها، مع تحقق النضج الفني للكتابة النسائية الروائية والقصصية. يردُّ الخطاب النقدي النسائي تهمة الذاتية بتهمة موجهة للمجتمع وتحميله مسئولية المعاناة الاجتماعية والنفسية للمرأة في الواقع، الأمر الذي قيد حضورها المجتمعي في الواقع قبل تقييد حضورها – المتأخر–في تاريخ الكتابة الإبداعية، ومن ثم تصبح مهمة الخطاب النقدي النسائي عند سوسن ناجي تسويغ حضور الذاتية باعتباره تحريرًا لصورة الذات الأنثوية من أسر العالم خارجها. وهو ما عبرت عنه على سبيل المثال بقولها:"إن تحقق الذات الأنثوية لا يكون إلا مع تحرر صورة الذات، وتحرر صورة الذات لا يكون إلا بخروجها من الداخل إلى الخارج، أي تحررها ضمنيًا من منظورها التقليدي(..) إن كثيرًا من أدبيات القرن العشرين

[١٩] سوسن ناجي. المرأة في المرآة.دراسة نقدية للرواية النسائية في مصر(١٨٨٨-١٩٨٥).(ص-ص٦-٧).
[٢٠] المصدر السابق، (ص١٧٤).

يستخدمن الكتابة دون تجاوزٍ للصورة المرسومة سلفًا من المجتمع لهن، فيعدن صياغتها، ويتجنبن التعبير عن الانفعالات والعواطف النفسية[٢١]".

ولا تتردد سوسن ناجي في التمييز بين كتابة النساء وكتابة الرجال على أساس ثنائية قطبية (الذات/العالم)، لتصبح كتابة المرأة كتابة محورها الذات، بينما كتابة الرجل كتابة محورها العالم، وهنا يبدو الرجل متهربًا من مواجهة الذات بعدم الكتابة عن الذات وتبدو المرأة وقد فقدت الثقة في العالم وجعلت من ذاتها عالما أكثر رحابة وأمنًا. وهذا التصور النقدي تدلل عليه بقولها:"وتصبح الرواية النسائية–لهذا– "بؤرة أحاسيس تستمد جمالياتها في المقام الأول من غنى العواطف وزخم الأحاسيس" ويصبح محور الرواية هو الذات، في حين أن محور الرواية التي يكتبها الرجل –في الغالب– هو العالم، وربما هذا يفسر تكرار استخدام "الأنا" في الرواية النسائية. ربما كنوع من تأكيد الذات وتحقيقه في الكتابة، وربما لأن المرأة ترى العالم كله مرتكزًا في ذاتها، وربما لأنها لا تطمئن إلى شيء في هذا الوجود سوى تلك "الأنا[٢٢]".

ووفقًا للمخطط الذهني للخطاب النقدي النسائي تتحرر المرأة من روح الرجل التي تسكن عقلها، وتطردها من ساحة نصوصها الإبداعية لتهيمن الذات النسائية على النص الروائي أو القصصي كرد فعل على سيطرة الرجل على المرأة في الواقع[٢٣] . ومع ذلك، نلحظ أن الخطاب النقدي النسائي يرصد مرحلة انتقالية في الكتابة النسائية لا تسكن فيها روح الرجل عقل المرأة، ولا تطرد فيها المرأة الرجل وتهيمن ذاتها الأنثوية على نصها ووعيها الخاص، ويبدو أن هذه المرحلة تتأرجح فيها الذات الأنثوية بين الخاص والعام، فتحضر الذات الأنثوية مرادفة للوطن لتكون هزيمتها من هزيمته وانكسارها من انكساره. وفي هذه القراءة تخريج نقدي للذاتية في الكتابة الإبداعية النسائية يعلو بالذاتية فوق تهمة الازدراء والتشوية التي تلحق بها عند القراء الذين يخلطون بين التجربة الفنية والتجربة الشخصية. ومن الأمثلة الدالة على ذلك التصور النقدي قولها:"وتتداخل القضايا السياسية مع القضايا الذاتية للمرأة، فتنعكس القضية أو الهزيمة السياسية لتصبح قضية، أو هزيمة ذاتية تمارسها المرأة في حياتها الخاصة ومن خلال علاقاتها بالآخرين[٢٤]."

وفي ضوء القول بحضور ظاهرة الأنا في الكتابة النسائية الإبداعية كملمح فني للكتابة النسائية الأكثر نضوجًا فنيًا وتحررًا من أسر نموذج الكتابة السائدة بين الرجال الذين يتخذون من العالم محورًا لهم، فإن الخطاب النقدي النسائي عند سوسن ناجي يتتبع أثر هذه السمة الفنية والاجتماعية على البناء الفني للرواية، فتصبح الرواية النسائية أقرب لرواية اللاحدث؛ نظرًا لهيمنة حديث الذات عن نفسها أكثر من حديثها عن أحداث تقع في العالم خارجها، فضلاً عن تأثر الزمن بالطبيعة البيولوجية للمرأة وما تمر به من مراحل زمنية خاصة بها

[٢١] سوسن ناجي. في مجادلة الخطاب الذكوري السائد.مقالات وبحوث في الأدب العربي. (ص-ص٢٨-٢٩)؟
[٢٢] سوسن ناجي. المرأة في المرآة.دراسة نقدية للرواية النسائية في مصر(١٨٨٨-١٩٨٥).(ص١٦٧).
[٢٣] سوسن ناجي.شعرية اللغة وتخييل الجنون.قراءة في السرد النسوي العربي المعاصر. (ص١١٢).
[٢٤] سوسن ناجي. المرأة في المرآة.دراسة نقدية للرواية النسائية في مصر(١٨٨٨-١٩٨٥).(ص٢٥).

مثل الحمل والولادة والدورة الشهرية، وغلبة الطابع التراجيدي على إحساس المرأة بالزمن كلما ابتعدت عن شبابها وجمالها[٢٥] وأثر ذلك على زمن الرواية التي تتخذ من الذات محورًا لها. أما فيما يتعلق بالمكان فتبرز سوسن ناجي تأثر البناء الفني للمكان في الرواية النسائية بعزلة المرأة وتقيدها بالمنزل وتقييد حركتها في المجتمع فضلا عن تقييد حركة سفرها خارج بلدها لا سيما في بدايات مسيرة الكتابة النسائية[٢٦].

إذا كانت غاية النقد النسائي تحرير المرأة من رؤيتها لذاتها باعتبارها ذاتًا مُلحقة بالرجل أو امتدادًا فكريًا لأفكاره عنها، فإن عملية التحرير تلك تتم عبر السير في مسار نقدي مختلف عن المسار التقليدي للنقد الذي رأته سوسن ناجي منحازًا ضد الكتابة النسائية. ومن ثم كان النقد النسائي رؤية للعالم منحازة –دون خجل من الانحياز– للمرأة باعتبارها كائنًا مبدعًا يبحث عن إبداع ذي خصوصية فنية وفكرية ومجتمعية في الوقت نفسه.

ومن هنا لن يخلق النقد الأدبي النسائي أفكارًا نقدية من عدم، وإنما كل ما يمكن أن يفعله لتحقيق غايته أنه سوف يستخدم الأفكار النقدية المضادة لغايته ليولّد منها عبر تدريبات ذهنية حجاجية وجوهًا جديدة لتلك الأفكار، ومن ثم يمكن لذهن القارىء بعد التعرف على الوجوه المتعددة للفكرة النقدية الواحدة أن يتحرر من الرؤية النقدية التقليدية. وبذلك يصبح للنقد الأدبي النسائي خصوصيته؛ إذ تتفق– سوسن ناجي مع ماري تريز عبد المسيح[٢٧] على أن خصوصية النقد الأدبي النسائي تكمن في أنه "بمثابة تدريب فكري يحرر الذهن من الرؤية التقليدية التي اعتاد أن يفسر به المرأة ككيان".[٢٨] إنه تدريب ذهني غايته خلخلة[٢٩] البناء النظري النقدي المنحاز للذكورية والبطريركية وطرح إشكاليات منهجية من موقع نسوي يؤمن بخصوصية الكتابة النسائية.

وإذا كان ولاء الناقدة النسائية لتحرير المرأة مبدعة وناقدة وإنسانة بهذا القدر من الوضوح والالتزام، فإن المنهج النقدي أو الفكرة النقدية التي يتم استخدامها لتحقيق تلك الغاية تتلون في الخطاب النقدي النسوي بحيث يمكننا الحديث عن تمثيل نسوي للمنهج النقدي المستخدم، وليس عن المنهج النقدي ذاته قبل دخول في شبكة مفاهيم خطاب سوسن ناجي النقدي النسائي. فعلى سبيل المثال، نجد استخدام مصطلح التفكيكية مستخدمًا في كتاب " في مجادلة الخطاب الذكوري السائد" استنادًا لاقتباس من مقالة لاعتدال

---

[٢٥] المصدر السابق، (ص١٥٠-١٥١)

[٢٦] المصدر السابق، (ص١٦١).

[٢٧] راجع ماري تريز عبد المسيح: الأدب النسائي والرؤية الجديدة لأدب المرأة،القاهرة:مجلة المجلة، العدد الثامن، ١٩٨٥/٣/٢٦، (ص١٦).

[٢٨] سوسن ناجي.شعرية اللغة وتخييل الجنون.قراءة في السرد النسوي العربي المعاصر.(ص٨٤).

[٢٩] المصدر السابق، ص٨٢.

عثمان عنوانها"عالم الجمال في الادب النسائي العربي"، فتصبح التفكيكية في هذا السياق من خطاب سوسن ناجي النقدي تعني ما يمكّنها من قراءة فجوات النص، أو ما لم يقله النص. ومن الشواهد الدالة على زعمنا هذا قولها:"وتتمثل منطلقاتنا المنهجية هنا من توظيف مقولات الفكر النقدي التفكيكي، والذي يمكننا من قراءة الفجوات في النص- لنعرف ما لم تقله "شهرزاد" ألف ليلة وليلة- ويرجع ذلك إلى "أن ما لا يقوله نص ما عادة بما يقوله النص بالفعل"[٣٠]."[٣١]

إن المرادفة بين قراءة الفجوات في النص أو القول بأهمية ما لا يقوله النص ومقولات الفكر النقدي التفكيكي تشير بوضوح إلى أن المراد بالتفكيكية في خطاب سوسن نقدي النسائي هو المعنى اللغوي للكلمة وليس المعنى الاصطلاحي، وربما ما يؤكد ذلك إعادة استخدام التفكيكية في مقدمة كتابها "اللغة المنسية في خطاب المرأة الأدبي" باعتبارها وسيلة وليس غاية، لأن الغاية عندها إعادة التركيب للعالم جماليًا وقد احتلت الأنوثة مكانها المناسب فيه. وهو ما نستدل عليه من قولها:" تعنى هذه الدراسات النقدية باستراتيجيات الخطاب الأدبي النسوي العربي المعاصر؛ من حيث خلخلة الآلية النظرية التي كرست للتحيز ضد المرأة، في التراث بشكل عام، وفي اللغة والأدب بشكل خاص. وقيمة هذا الدرس تكمن في كشفه عن فعل التخييل في الخطب النسوي العربي وقد أصبح طرفًا أساسيًا في عملة المواجهة عبر فعل التفكيك وإعادة التركيب للعالم جماليًا، ذلك أن وعي الكاتبة بالكتابة سرّب إلى لاوعيها أهمية قلب الخطاب لاستعادة الأنوثة له"[٣٢].

وفي سياق آخر ترد التفكيكية مصحوبة ببعض مفاهيمها المعروفة عند دريدا مثل الإرجاء[٣٣]، استنادًا لاقتباس من صبري حافظ[٣٤]، ومع ذلك لا يتجاوز هذا التوسع في مفاهيم التفكيكية الاستخدام النظري للكلمة لتأدية مهمة نسائية واضحة تتحقق بشكل أساسي عبر آلية التأويل للنصوص في كثير من الأحيان، وربطها بالسياق الثقافي والتاريخي في بعض الأحيان.

وبالمثل يَرِد منهج البنيوية التوليدية في خطاب سوسن ناجي النقدي ليؤدي الوظيفة نفسها التي أدتها التفكيكية ولكن على نحو مختلف، فإذا كانت وظيفة التفكيكية الكشف عن أهمية المسكوت عنه أو قراءة فجوات النص بغرض استعادة العالم وقد حلت الأنوثة فيه في مكانها المناسب، فإن البنيوية التوليدية[٣٥] ترد في خطاب سوسن ناجي للربط بين النص الأدبي والمجتمع، وبين العام والخاص، وذلك من خلال دراسة

---

[٣٠] المقتبس من اعتدال عثمان:عالم الجمال في الأدب النسائي العربي. الإمارات:مجلة شئون أدبية، العدد الرابع، ١٩٨٧.

[٣١] سوسن ناجي. في مجادلة الخطاب الذكوري السائد.مقالات وبحوث في الأدب العربي. (ص٥٤).

[٣٢] سوسن ناجي: اللغة المنسية في خطاب المرأة الأدبي. دراسات نقدية. القاهرة: دار واو للنشر، ٢٠٢١.

[٣٣] سوسن ناجي: شعرية اللغة وتخييل الجنون.قراءة في السرد النسوي العربي المعاصر.(ص-ص٨٤-٨٥).

[٣٤] الإشارة إلى كتاب صبري حافظ: أفق الخطاب النقدي. دراسات نظرية وقراءات تطبيقية،القاهرة :دار شرقيات للنشر، ١٩٩٦. (، ص-٣٢-٣٣).

[٣٥] سوسن ناجي. تخييل الآخر في القصص النسوي المعاصر.(ص١٢).

أيديولوجيا الكاتبة وعلاقة تلك الأيديولوجيا بأدوات التعبير الفني المستخدمة في نصوصها القصصية، وهو ما يفضي لتأكيد خصوصية الكتابة النسائية الفنية وخصوصية الأيديولوجيا الكامنة خلفها.

صفوة القول، إن حضور المناهج النقدية في خطاب سوسن ناجي النقدي ناتج عن توظيف ذرائعي براجماتي يختزل المنهج لإحدى مقولاته، وربما دون تدقيق لها أو تعمق فيها ما دام حضورها العابر يحقق الغرض منها في الخطاب النسائي النقدي. وهو تعبر عنه سوسن ناجي بوضوح بقولها: "فناقدة الأدب النسائي لها حرية اختيار أي من المناهج النقدية التي تتلاءم مع أغراضها الفعلية[٣٦]". فالعبرة ليست بولاء الناقدة النسائية لمنهج نقدي بعينه، وإنما بولائها للكتابة النسائية. ونظرًا لأن الغرض يتحقق في كل كتاب بمعزل عن بقية الكتب التي تأتي عبر سنوات من التأليف، فإن الناقدة النسائية لا تنشغل بمدى تحقق الانسجام الفكري بين المناهج المستخدمة في خطابها النقدي في مجمله.

- محاولات تحقيق الانسجام بين الخطاب النقدي النسوي ومسألة الهوية.

من المهم أن نستعيد دعوة سوسن ناجي في بدايات مسيرتها النقدية إلى ضرورة تأصيل الليبرالية الفكرية التي يمكن على أرضيتها احترام وجهات النظر المختلفة وفهم أسباب الاختلاف[٣٧]، ومن ثم يصبح في ظل هذا الأفق الليبرالي للرواية النسائية حق الاختلاف فضلاً عن حق الوجود إلى جانب روايات الرجال. ولا يقل أهمية عن تلك الدعوة لليبرالية الفكرية ذلك التوافق الذي عبرت عنه سوسن ناجي بينها وبين تصور الناقد جابر عصفور في كتابها الصادر عام ٢٠٢١ بعنوان "شعرية اللغة"، حول نظر كليهما للكتابة النقدية –وفي القلب منها النقد النسائي عند سوسن ناجي– على أنها كتابة وعي ضدي[٣٨]. ولا يقل أهمية عن هذا وذاك، ما حرصت عليه سوسن ناجي من استنادٍ لناقدات نسويات مثل سيمون دي بفوار وسوزان جوبار للقول بمسئولية المجتمع عن جعل المرأة امرأة بروح رجل أي متبنية لمنظوره لها عنها[٣٩]. إضافة إلى استنادها لجاك دريدا للقول بقراءتها لفجوات النص لاستنطاق صوت المرأة المقموع أو المسكوت عنه[٤٠]. ومع ذلك، يبقى تعليق سوسن ناجي على اقتباسها من جوليا كريستيفيا بخصوص تهميش المرأة ومروره عبر مراحل معينة[٤١] هو تعليق ذو أهمية في الكشف عن نشوء قلق في خطاب سوسن ناجي النقدي أطلقت عليه في هذا

---

[٣٦] سوسن ناجي: شعرية اللغة وتخييل الجنون.قراءة في السرد النسوي العربي المعاصر.(ص٨٤).
[٣٧] سوسن ناجي. المرأة في المرآة.دراسة نقدية للرواية النسائية في مصر(١٨٨٨-١٩٨٥).
[٣٨] سوسن ناجي.شعرية اللغة وتخييل الجنون.قراءة في السرد النسوي العربي المعاصر.(ص٨٥)
[٣٩] سوسن ناجي. في مجادلة الخطاب الذكوري السائد.مقالات وبحوث في الأدب العربي. (ص٢٦).
[٤٠] سوسن ناجي.شعرية اللغة وتخييل الجنون.قراءة في السرد النسوي العربي المعاصر.(ص٨٤-٨٥)
[٤١] تستند سوسن ناجي لصبري حافظ في كتابه أفق الخطاب النقدي لتشرح وجهة نظر جوليا كريستيفا التي لا تميز بين صراع المرأة من أجل مقاومة التهميش وصراع أي طيقة أو جماعة مهمشة في ظل الفكر الأبوي، لأن الصراعات كلها تمر عبر مراجل ثلاث هي التهميش marginality التخريب Subversion الانشقاق Dissidence. راجع سوسن ناجي: شعرية اللغة (ص١٠٥)

السياق "خصوصية وضع المرأة في مجتمعها، وخصوصية أزمتها والتي تنطوي على محاور كثيرة ومتداخلة.. بعضها نفسي والآخر بيولوجي إلى جانب خصوصية الموقع، الأمر الذي ينعكس على ماهية التجربة واللغة وتشكيل الخطاب[٤٢]".

إن تعليق سوسن ناجي الاحترازي من المساواة بين تهميش المرأة وتهميش طبقة اجتماعية أو تهميش جماعة ما، إضافة إلى احترازها من المسار الآلي الخطي للمراحل من التهميش إلى التخريب إلى الانشقاق، هو تعليق نابع من قاريء فعلي تلونت المعرفة النظرية التي أنتجتها جوليا كريستفيا في زمكانية معينة وفق مخزونها المعرفي. كان في ذهن جوليا كريستيفيا وهي تكتب قاريء لمضمر يشاركها الأرضية المعرفية، ربما كان صبري حافظ قاريء فعلي يكاد يتماهى مع ذلك القاريء المضمر، لكن المؤكد أن سوسن ناجي لعبت دور القاريء الواقعي الذي يبتعد مسافات عن القاريء الضمني لتلوينها للمعرفة باستنادها لواقع مجتمعي ترى وضع المرأة فيه ذا خصوصية وترى أزمتها ذات خصوصية. وهو ما تعبر عنه بقولها: "فالنصوص تتيح سلسلة من القراءات الممكنة، ويمكن تقسيم مصطلح قاريء إلى(قاريء مضمر)، و(قاريء فعلي)؛ الأول هو الذي يخلقه النص لنفسه ويعادل شبكة من أبنية الاستجابة تغرينا على القراءة بطرائق معينة، أما القاريء الفعلي فهو الذي يستقبل صورًا ذهنية بعينها أثناء عملية القراءة ولكن هذه الصور لابد أن تتلون حتمًا بلون "مخزون التجربة الموجود" عند هذا القاريء[٤٣]".

ومن ثم تبتعد سوسن ناجي عن فكرة جوليا كريستيفيا، التي اقتبستها من صبري حافظ، بل وتنقضها بقدر اقترابها من فكرتها عن خصوصية واقع المرأة وخصوصية أزمتها في مجتمعها. ويمكن أن نوضح مثالاً للكيفية التي تتعامل بها سوسن ناجي مع تلك الخصوصية المشار إليها، وذلك بالنظر في الحجج التي أوردتها في كتابها ". في ثقافة التمدن وبناء الهوية" الصادر ٢٠٢٢، لرفض ما تقوم به بعض البلاد الإسلامية من فصلٍ بين الرجال والنساء[٤٤]. ففي سياق بناء حججها تستخدم سوسن المعتزلة على نحو يرادف بين فكرهم الفلسفي وبين المثل الشعبي "ربنا عرفوه بالعقل"، ثم تدعم أهمية العقل في خطابها الحجاجي بالاستناد لآيات القرآن الداعية لاستخدام العقل، ثم تستخدم سوسن ناجي اسم الإمام الغزالي كمرجعية دينية وهو يفرق بين واقعنا المتخلف وتراثنا الثقافي المبرأ من تخلف واقعنا[٤٥].

---

[٤٢] سوسن ناجي.شعرية اللغة وتخييل الجنون.قراءة في السرد النسوي العربي المعاصر. (ص ١٠٥).

[٤٣] حسن عبد الناصر. نظرية الاستقبال بين ياوس وإيزر .القاهرة:دار النهضة العربية، ٢٠٠٢.(ص٤٥-٤٦).

[٤٤] نلحظ العودة بالقضايا النسائية في خطاب سوسن ناجي إلى ما قبل نقطة البداية التي كانت مرتبطة بحق المراة المبدعة في الاختلاف وفق مفهوم الليبرالية الفكرية.

[٤٥] تقول سوسن ناجي :"وفي التراث الإسلامي – على سبيل المثال– أقرت المعتزلة أن معرفة الله تتأتى بالعقل، وانتشرت المقولة الشهيرة"ربنا عرفوه بالعقل"، ثم أدى المعتزلة بعد ذلك دورًا كبيرًا للرد على الشبهات أو المخالفين بالعقل". ومما يدل على اهتمام القرآن بالعقل آيات كثيرة منها[إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون](يوسف،٢). يقول الشيخ محمد الغزالي "إننا

ومن هنا يمكن أن نلحظ محاولة سوسن ناجي نسج خطاب منسجم من رافد معرفي نسوي ورافد إيماني ثقافي له دور حاسم في بلورة الهوية الفردية للناقدة النسائية، ولهوية الذات الأنثوية كما تظهر في خطاب سوسن ناجي النقدي. وأثناء عملية تضفير الخيوط المعرفية للخطاب النقدي النسائي يمكن أن نلحظ نتواءات بارزة تكشف عن تأرجح الذات الناقدة بين انشغالات خطابها النقدي النسائي، ومقتضيات الثقافة الجمعية المشكّلة لهوية الذات الأنثوية في ذلك الخطاب. فعلى سبيل المثال، حين تجد سوسن ناجي نفسها في معرض الدفاع عن القوامة في الإسلام، تجد نفسها أمام مسألة الميراث والدرجة التي يعلو بها الرجال على النساء في قوله تعالى " ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم"(البقرة ٢٢٨)؛ وهنا أمامها الإقرار بأن المساواة قد تحققت بالفعل بربط القوامة بالإنفاق، ومن ثم يصبح من الطبيعي أن يرث المنفق أكثر ممن يُنفق عليه، أو تكون راغبة في تبني وعي ضدي وتغيير للثقافة وللمجتمع وتنادي بمراعاة تغير الظروف والأحوال التي تدعو لتغيير مفهوم القوامة ومنطق الميراث.

إن تأرجح سوسن ناجي بين رؤيتين للعالم دفعها للجمع- ربما دون وعي- بين عدالة التفرقة بين الرجل والمرأة بالقوامة والميراث من ناحية، وإمكانية التغيير المستقبلي وتحقيق المساواة من ناحية ثانية وذلك بالتعبير عن اعتقادها بأن مراعاة ظروف مجتمع الرجال ومواكبة المناخ الاجتماعي وقت نزول الوحي ربما كان سببًا للتفرقة بين الرجل والمرأة. وهذا الجمع بين الرؤيتين يظهر واضحًا في قولها:"ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة، والله عزيز حكيم"(البقرة ٢٢٨)؛ لأن المبدأ هنا هو المساواة"ولهن مثل الذي عليهن". أما علو الدرجة، فقد جاء لتعزيز مبدأ الإنفاق عند الذكر، الذي يرث ضعف نصيب الأنثى-وفي الوقت نفسه- ربما أتى كصياغة تتواكب والمناخ الاجتماعي العام- في مثل هذه الفترة المبكرة من عمر التاريخ- حتى يمكن أن تُقبل من الرجال آنذاك، أي في فترة حاسمة- مبكرة كانت توأد فيها البنات وتستعبد المرأة، وهذا الاستعباد لم يكن في بلاد العرب فحسب، وإنما في آثينا و بيزنطة وفارس[٤٦]".

لا يمكن لهذا التأرجح أن يستمر، لأنه بمثابة بوليفونية فكرية مبتورة لأن الناقدة النسائية لا تُسائل الذات عن أسبابها ومصيرها، ومن ثم ينزوي اللاوعي النسوي الذي يظهر على استحياء في الأرجحة بين إقرار عدالة التفرقة لكل زمان ومكان، أو فتح الخطاب نافذة يرصد منها المناخ الاجتماعي العام ومدى تواكبه مع اقتران

نحمّل تخلفنا أيضًا لمواردنا الثقافية فنفسر ميراثنا الثقافي من خلال واقع التخلف الذي نعيش فيه، فنصير نلجأ إلى لون من التفسير المتخلف أيضًا كنوع من التسويغ للواقع الذي نحن عليه، فتنتفي بعض النصوص، ونعتمد على بعضها الآخر، وما إلى ذلك دون النظر إلى صحتها من حيث السند أو إلى الأبعاد المطلوب إدراكها(..) ومن أمثلة ذلك "أن بلادًا إسلامية برمتها يحكمها حديث مكذوب كحديث(خير للمرأة ألا ترى رجلا ولا يراها رجل)." (٣٦). راجع سوسن ناجي. في ثقافة التمدن وبناء الهوية. دار واو للنشروالتوزيع. القاهرة، ٢٠٢٢. (ص٣٦).

[٤٦] سوسن ناجي.شعرية اللغة وتخييل الجنون.قراءة في السرد النسوي العربي المعاصر.(ص٩٢).

الميراث بالقوامة، فضلاً عن إمكانية تبدل القوامة بتبادل الأدوار الجندرية. ويبدو أن الوعي النسوي في خطاب سوسن ناجي النقدي النسائي قد تلقى ضربة قاسمة منذ اللحظة التي اقترنت فيها الذات الأنثوية بالذات العربية، حيث قاربت سوسن ناجي وأقامت علاقة تماهٍ بين الذات الأنثوية والذات العربية بينهما باعتبارهما في أزمة هوية نتيجة العزلة والانقطاع عن الجوهر والحقيقة الداخلية، وأن الخروج من الأزمة لا يكون إلا بوصل ما انقطع، والعودة للجذور، واسترداد الوعي. وهو ما توضحه بالتفصيل في قولها: "وكما يتم رأب قطوع الذات العربية بالعودة إلى الأصول الإيمانية والتراثية والتاريخية الأولى يتم رأب قطوع هذه الذات الأنثوية بأن تؤوب إلى ذاتها وأهلها ومجتمعها بنبذ القطيعة مع الروابط الأولية ثم الاندماج في الكل والمجتمع بعد استرداد العفوية والتلقائية لتلك الذات، ولن يتسنى لها هذا إلا بتغيير وضعية المرأة في الوعي والخطاب العربيين بصفة عامة[٤٧]".

إن المرادفة بين الذات الأنثوية والذات العربية في خطاب سوسن ناجي النقدي تتم على مستوى تشخيص الأزمة، وعلى مستوى الحل الناجع من وجهة نظرها للخروج من الأزمة، وهو ربط الذات العربية المنقطعة معرفيًا عن أصولها بالرسالة الإسلامية وتجديد الوعي بالدين داخل هذه الذات. ومن الأمثلة الدالة على ذلك التصور قولها: "إشكالية الانقطاع (الزمني/الحضاري) في اللحظة المعاصرة؛ نتيجة فقدان الوعي بالزمن، وما يحدثه هذا الفقدان من قطوع في الذات العربية، ينشأ عنها هذا الانقطاع في اللحظة المعاصرة- تعد إشكالية الذات العربية الكبرى، التي فقدت روابطها الأولية بالرسالة الإسلامية في قرونها الأولى قبل أن تحل عصور الجمود والكسل العقلي، وقبل أن تعلق البدع والخرافات الأذهان. (..) نتيجة قرون من الاستعمار متتابعة، ولن يكون ذلك إلا بتجديد الوعي بالدين داخل هذه الذات"[٤٨]!

من المهم أن نلاحظ أن الاقتران بين الذات الأنثوية والذات العربية كان الدافع له في خطاب سوسن ناجي أن كلتيهما في أزمة، لكن تعريف الأزمة بأنها أزمة هوية كان يعني أن ثمة تراتبية قد نشأت داخل الخطاب بين الذات الأنثوية والذات العربية حيث تم فرض توصيف الأزمة بأنها أزمة هوية متعلقة بوضوح بالذات العربية على الذات الأنثوية التي قد يكون لديها أزمة لكنها ليست بالضرورة أزمة هوية. ومع نشوء التراتبية تلك يسقط الترادف بين الذات الأنثوية والذات العربية، وتصبح علاقة تبعية حيث تسبق الذات العربية وأزمة هويتها الذات الأنثوية التي يُمنيّها الخطاب النقدي النسائي بأن أزمتها سُتحل وأن وضعية المرأة في الوعي والخطاب العربيين ستتغير بمجرد حل الذات العربية لأزمة هويتها. وعلى هذا، يكون الحل لأزمة الهوية لدى الذات العربية بالعودة لأصول الرسالة الإسلامية وتجديد الوعي بالدين داخل هذه الذات، هو نفسه

[٤٧] سوسن ناجي.خوف الكتابة، مقاربة نقدية لهوية الكتابة الأدبية عند المرأة العربية.(ص ص٥.-٦).

[٤٨] سوسن ناجي. في ثقافة التمدن وبناء الهوية. (ص٨).

شكل التغيير لوضعية المرأة في الخطاب والوعي العربيين الموعودة به الذات الأنثوية في خطاب سوسن ناجي النقدي النسائي.

يظهر بوضوح أن الخطاب النقدي النسائي عند سوسن ناجي حين ابتعد عن تحليل النصوص الأدبية والقصصية والشعرية، وبدأ الانشغال بمسألة الهوية قد استمد رؤيته الفكرية من مرجعيات فكرية إسلامية مثل مالك بن نبي[٤٩]، ووجد في الخطاب النسائي الإسلامي وما قدمته هبة رؤوف عزت في دراستها "المرأة والاجتهاد:نحو خطاب إسلامي جديد[٥٠]"، من نقد لهيمنة الخطاب العلماني على الخطاب النسائي دافعًا للدعوة لأسلمة الخطاب النسائي. ومن الشواهد الدالة على ذلك قولها:"إن تصالح الخطاب النسائي-النسوي[٥١] مع الخطاب الإسلامي وإعادة النظر في أطروحاته هو المجال الوحيد للانتشار والرواج في المجتمعات العربية الإسلامية، وفي ظل أسلمة هذا الخطاب ستحقق التنوير للوعي العربي بماهية الطرح النسوي النسائي وما ينطوي عليه -إجمالا- من أفكار تنويرية تحتاج-هي الأخرى- إلى التنقيح وإعادة النظر، ومن ثم يتحقق لها الشرط الاجتماعي لخلخة السائد والبالي من الأفكار القديمة، والتي كان لها أكبر الدور في تكبيل وعي المرأة العربية والحول بينها وذاتها عبر التاريخ الإسلامي"[٥٢].

تبني سوسن ناجي هوية إسلامية لخطابها النسائي تتأسس على منازعة بين الخطاب العلماني والخطاب الإسلامي، إذ يتم تمثيل رفاعة رافع الطهطاوي باعتباره رائد التنوير الإسلامي، استنادًا إلى أنه " لم يكن مع هؤلاء المتغربين، بل إن نصوصه تشهد ضدهم، وتنتقد حضارتهم، لأنها ترجع فقط إلى براهين العقل. يقول"إننا لا نعتد بالتحسين والتقبيح العقليين إلا إذا ورد الشرع بالتحسين والتقبيح" ، الطهطاوي هنا يقرن الشرع بالعقل وهذا موطن الخلاف بينه والتنويريين بالمفهوم الغربي الذين يقرون بالعقل وحده"[٥٣].

---

[٤٩] تقول سوسن ناجي:"إن مراجعتنا آراء "مالك بن نبي" وتقسيمه التجريدي لمراحل الحضارة، خاصة في كتابه شروط النهضة- تؤكد على أهمية العودة إلى الأصول".(ص١٤). راجع سوسن ناجي.شعرية اللغة وتخييل الجنون.قراءة في السرد النسوي العربي المعاصر .(ص١٤).

[٥٠] هبة رءوف عزت: المرأة والاجتهاد: نحو خطاب إسلامي جديد".القاهرة: مجلة ألف، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ع١٩، (١٩٩٩). راجع إحالات سوسن ناجي لهذه الدراسة في سوسن ناجي.شعرية اللغة وتخييل الجنون.قراءة في السرد النسوي العربي المعاصر .(ص٨٥-٨٧)

[٥١] لا تفرق سوسن ناجي بين نسائي ونسوي في هذا السياق فهي تستخدمهما بالمعنى نفسه. لكنها في دراستها لتاريخ الرواية النسائية وكذلك القصص النسائي في كتابها الأول والثاني، كانت تميز بين كتابة نسائية تكتبها كاتبات تقمصتها روح الرجل، وكتابة نسائية تتحقق فيها الاستقلالية لصوت الأنثى عن صوت الرجل.

[٥٢] سوسن ناجي.شعرية اللغة وتخييل الجنون.قراءة في السرد النسوي العربي المعاصر .(ص١٢٧).

[٥٣] سوسن ناجي. في ثقافة التمدن وبناء الهوية. (ص٢٤).

وتنتقي سوسن ناجي أبناء الطهطاوي وأحفاده في عملية بنائها لتاريخ خطاب تنويري إسلامي، فنرى أسماء مثل جمال الدين الأفغاني، الإمام محمد عبده، حسن البنا، الشيخ محمد الغزالي، الشيخ يوسف القرضاوي. وفي المقابل تؤسس لتاريخ الخطاب التنويري العلماني بطه حسين الذي يتم تمثيله باعتباره ممثلا للنخبة العلمانية التي تنظر لها سوسن ناجي على أنها بمثابة غزو فكري للهوية القومية الإسلامية. وذلك في قولها: "ونمثل لذلك بمقولة عميد الأدب العربي طه حسين في هذا المجال، حيث يقول: " إن السبيل واضحة ومستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي واحدة فذة ليس لها تعدد، وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم، لنكون لهم أندادًا ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها حلوها ومرها""[٥٤]. وتنتقي سوسن ناجي كذلك أبناء طه حسين وأحفاده في عملية بنائها لتاريخ خطاب تنويري علماني، فنرى أسماء مثل سلامة موسى، لويس عوض، غالي شكري الذين تصفهم بأنهم "رؤوس التغريب من علمانيين ومسيحيين"[٥٥].

إن بناء الهوية لخطاب نقدي نسائي على أساس المنازعة بين خطاب علماني وخطاب إسلامي يعني أن الاستحواذ على الأشخاص والمفاهيم وإضفاء هوية إسلامية عليهم هو في جوهره يعكس إيمانًا بأن شخصًا مثل رفاعة الطهطاوي يستحق التنازع عليه واستملاكه فكريًا حتى لو كان بشكل جزئي ومُغرض، وأن مفاهيم مثل التنوير والخطاب النسائي هي مفاهيم ليس من السهل رميها وراء الظهر أو التنازل عنها لمن تم تمثيلهم باعتبارهم خصومًا فكريين معادين للهوية القومية الإسلامية. لكن المأزق الحقيقي الناتج عن فعل الاستحواذ على الأشخاص والمفاهيم بهذا الوعي الاستقطابي أنه عندما ينتقل من بناء الهوية السايسية والايديولوجية داخل الوطن إلى بناء الهوية الوطنية في مقابل الآخر لا يستطيع أن يرى ذاته القومية الإسلامية سوى في صورة شخص يتم رجمه عقابًا له على انتساب تنظيمات إرهابية له حتى لو كان ذلك بشكل ذرائعي، وهنا تختفي الذات الأنثوية تمامًا وتبقى الذات المرجومة هي الذات القومية الإسلامية هي الأجدر بالبحث في أزمتها. ومن الأمثلة الدالة على ذلك التصور قولها:"وانتشرت تنظيمات أخرى على وتيرة هذا التيار الديني نفسه في بلدان أخرى من بلدان العالمين العربي وغير العربي، متخذة خطابًا تقريعيًا لا حواريًا، معتمدًا سياسة العنف والتخريب، مبتعدًا عن الحكمة والموعظة الحسنة؛ الأمر الذي جعل الغرب يتخذهم ذريعة لرجم الإسلام والمسلمين، تحت شعار محاربة الإرهاب[٥٦]".

- تعليق ختامي:

[٥٤] سوسن ناجي. في ثقافة التمدن وبناء الهوية. (ص-ص١٢-١٣).
[٥٥] المصدر السابق، (ص١٣).
[٥٦] سوسن ناجي. في ثقافة التمدن وبناء الهوية. (ص٢٨).

يمكن النظر إلى خطاب سوسن ناجي النقدي النسائي نظرة تاريخية لرصد التطور التاريخي للوعي النسوي في خطابها النقدي، واضعين في اعتبارنا تاريخ نشر الكتب، ويمكن وفق هذه النظرة الحديث عن تحول من وعي نسوي متشكل في ظل مثاقفة بين لطيفة الزيات وفريال غزول ومرفت حاتم ونوال السعداوي و باحثة من جنوب مصر ساعية للاشتغال على أدب المرأة في رسالة ماجستير بدار العلوم، ثم يمكن الحديث عن تحول في الوعي أو بالأحرى بلورة لوعي إسلامي كان له أثره على الوعي النسوي عند الانشغال بسؤال الهوية القومية والدينية وأزمة الذات العربية. لكن في حقيقة الأمر، من المهم الإشارة إلى أن حرص سوسن ناجي على إعادة نشر كتبها القديمة بالعناوين نفسها في طبعات جديدة أو بعناوين جديدة عدة مرات دون أي مراجعات لمواقف نقدية نسائية أو تعبير عن تغير في الرؤى النقدية يجعلنا نتعامل مع منجزها النقدي باعتباره خطابًا نقديًا وليس كتبًا نقدية منفصلة عن بعضها البعض. ومن ثم، يمكن الحديث عن حضور الفكر النسوي في خطاب سوسن ناجي النقدي استنادًا لما أسماه إدوارد سعيد بارتحال النظرية عند ملاحظته تغير أفكار جورج لوكاش بنقل لوسيان جولدمان لها، ليس لشيء سوى لأن "لوكاش كان يكتب بوصفه مشاركًا في النضال من أجل الجمهورية الهنجارية السوفياتية في العام (١٩١٩)، بينما يكتب جولدمان كمؤرخ خارج وطنه في جامعة السوربون"، ومن وجهة نظر، يمكننا القول إن تكييف جولدمان لأفكار لوكاش يحط من قدر النظرية ويقلل من أهميتها، لا بل يقوم إلى حدٍّ، بتدجينها لكي تتناسب مع متطلبات رسالة لنيل الدكتوراه في باريس[٥٧]".

إذا كان إدوار سعيد يتفهم حاجة لوسيان جولدمان لتدجين أفكار لوكاش في رسالته للدكتوراه، معتبرًا ذلك من ضرورات ارتحال النظريات وانتقال الأفكار بين أبناء الثقافة الواحدة، فإن تدجين الأفكار وتكييفها في الخطابات النقدية عند انتقالها من ثقافة لأخرى أمر يجب تفهمه ودراسته باعتباره حاجة من حاجات تدجين الأفكار لتحقيق انسجام خطابي نقدي حتى لو كان متوهمًا. ومن ثم، يمكن النظر إلى النسوية باعتبارها أفكارًا تم انتقالها من الثقافة "الغربية" و تم تدجينها في خطاب سوسن ناجي النقدي لتتجاور مع أفكار أخرى مستقاة من الثقافة الإسلامية العربية، وبطبيعة الحال كان لسؤال الهوية الهيمنة في تكييف الفكر النسوي في ذلك الخطاب.

صفوة القول إن تغير الأفكار والنظريات عند انتقالها من خطاب لخطاب " هو الأمر الطبيعي وعدم التغير هو ما ينبغي أن يثير سؤالاً إن حدث في ثقافة ما أو خطاب ما"[٥٨]، لكن الملاحظ أننا في خطاب سوسن ناجي النقدي النسائي يمكن أن نتحدث عن تغير يلحق بالأفكار النسوية داخل خطابها النقدي، وكأننا

[٥٧] إدورد سعيد:انتقال النظريات. ترجمة أسعد رزق. لندن: مجلة الكرمل. العدد ٩، (١٩٨٣). (ص٢٢).
[٥٨] سيد ضيف الله:الترجمة والمثاقفة : حول النقد الثقافي. القاهرة: مجلة ألف، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، العدد ٣٨، ٢٠١٨. (ص٢٦٠).

أمام تكييف لأفكار تبنتها سوسن ناجي في دراساتها النقدية للنصوص الإبداعية للمرأة في بداية مسيرتها النقدية ثم قامت بتدجينها في خطابها النقدي المتأخر عن الهوية.